شكير نصرالدين ميخائيل باختين رائدا لتحليل الخطاب.

ليس من الهين بسط حياة مفكر مثل ميخائيل باختين(1895 - 1975)، حياة فكرية ذات انتاج غزير امتد لما يزيد عن نصف قرن(1923-1974)، كما لا يسع المرء الحديث بيقين كبير عن مفكر يصعب تصنيفه حصريا، إذ لا يمكن حبسه داخل هذا المجال الفكري من العلوم الانسانية دون غيره، فضلا عن تعدد التلقي الذي عرفته و تعرفه إلى اليوم أعماله في أكثر من قارة و بلاد.

ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر الوجوه التي عددها تزفيتان تودوروف للمفكر الروسي في تمهيده للترجمة الفرنسية الخاصة بكتاب "جمالية الإبداع اللفظي" حيث نتعرف معه على ملامح الناقد الذي يفكك المشروع الشكلاني الروسي في إبّانه ويبين تهافته، والمفكر الظاهراتي من خلال كتاب "المؤلف و البطل"، و السوسيولوجي الماركسي نهاية عشرينات القرن الماضي(الماركسية و فلسفة اللغة)،وذاك الذي يتجلى أيضا في مشكلات شعرية دوستوييفسكي؛ إضافة إلى باختين سنوات الثلاثينات والأربعينات، التي يميزها كتاب أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية، وكشوفاته الثقافية في مجال الاحتفالات الشعبية والكرنفال و تاريخ الضحك، و باختين " الجامع" من خلال كتاباته الأخيرة. و سوف يتضح من عرضنا أن القائمة مفتوحة، إذ تتعدد الوجوه بتعدد التلقي الذي يخصص لأعمال الرجل و فكره، حيث نستطيع أيضا الحديث عن باختين منظر و مؤرخ الأدب، و باختين الرائد في جمالية التلقي، و السيمائيات و علم الثقافة، إلخ. لكن في هذا الحيز سوف ننهل من أعماله فحسب ما يعنينا في تحليل الخطاب أو على الأصح الخطابات.

لكن قبل هذا و ذاك، أيُّ سبيل ينبغي نهجه وسط هذا الفكر الكثيف، الذي تحفه الكثير من الظلال و الذي يرخي بسدوله نحو أكثر من مبحث؟

لعل الباحث يجد ضالته في مفهوم مركَب، يخترق المنجز الفكري لباختين، و نعني به **الحوارية**، هذا المفهوم الرئيس الذي تجلى أحيانا في مفردات ـ مفاهيم لها قرابة معه دون أن تكون مرادفا تاما له أو تستنفد مدلوله، و منها التفاعل، التناص، البوليفونيا، التعالق، وغيرها. مفهوم حاضر منذ كتابات الباحث الروسي

الأولى من خلال المبدأ الإجرائي ونقصد به مبدأ "الوصل": وصل الفهم والمعرفة cognition،الأنا و الآخر، الحوار و المونولوغ، المتكلم و المخاطب، الهوية و التعدد، الكوني و المحلي، الملفوظ و التلفظ، الشرح و التأويل ، وغيرها من المفاهيم و الأطر المرجعية والمباحث.

وإن كان باختين لم يختص الحوارية بشرح مستفيض، يكفي مع ذلك أن نقوم بجرد بسيط لبعض السياقات التي ترد فيها ضمن كتابه "جمالية الإبداع اللفظي" من أجل إدراك ثقلها في المشروع الباختيني: حوارية المتكلم ومخاطبيه، حوارية الأنا و الآخر، حوارية المؤلف الروائي و شخصياته، حوارية الملفوظات، العلاقات الحوارية بين النصوص، و بين الأجناس الخطابية، حوارية التفكير، حوارية الأزمنة: الحاضر و الماضي و المستقبل. و هي على الأخص مقولة مخصبة في مجالين اثنين يهمنا أمرهما في هذا المقام: التلفظ و تحليل الخطاب.

ما المقصود بالحوارية إذاً؟ تدلُّ الحوارية على توجُّه كلّ خطاب نحو خطابات أخرى: سواء الخطابات التي تحققت من قبل حول موضوع الخطاب نفسه، أو الخطاب ـ الاستجابة التي يستدعيها و الخطاب نفسه بصفته تلك؛ ويتجلى هذا التوجه على هيئة أصداء و ارتدادات، و تناغميات تدل على خطابات أخرى، وأصوات أخرى تُدخل الآخر في الأنا. و تتمثل الميزة الأبرز للحوارية في أنها تجعل الإنسان في صلب التفكير، الإنسان باعتباره تعبيرا خِطابيا، الإنسان الذي يتكلم، الذي لا يتكلم لوحده، حتى حينما يكلم نفسه؛ في هذا يتميز الطرح الباختيني عن لسانيات عصره التي تجعل المتكلم قطب رحى التواصل، غافلة عن البعد الحقيقي لكل تواصل جدير بهذه الكلمة، أي التبادل اللفظي كتفاعل بين طرفين، متكلم و مخاطَب أو مخاطَبين، يجمعهما سياق اجتماعي و تاريخي و لغوي. في هذا الصدد ينبغي التمييز بين ظاهرتين اثنتين: **التحاور** الذي يتم على مستوى التبادل و يستدعي متحاورين، قد يكثر عددهم أو يقل؛ و**الحوارية** التي تتم على مستوى الملفوظ و تستدعي خطابات عديدة. إلا أن باختين لا ينظر إلى لسانيات عصره نظرة إقصاء بل يُظهر قصورها فحسب، سواء في تجلياتها الوظيفية أو البنيوية أو السلوكية، مع تصويب في المنظور لمفاهيمها المؤسسة: المتكلم، المخاطَب، المستمع، الجملة، وغيرها من المكونات النحوية والمعجمية و الدلالية؛ إذ يضرب لهذا التصويب المحوِّل مثَل فعالية المتكلم و تفاعله، حيث أن الأشكال

اللغوية لا أهمية لها عند المتكلم باعتبارها إشارة ثابتة معادلة دوما لنفسها، بل هي علامة متبدلة ومرنة على الدوام" (الماركسية و فلسفة اللغة، ص 99)،كما أن على المتكلم، وفق منظوره، أن يأخذ في الحسبان المستمع و القارئ الذي يفك الشفرة. والشأن كذلك بالنسبة للكلمة و الجملة و غيرها من الأشكال اللغوية، التي يتخذها باختين دليلا على عجز المقاربات اللسانية المعاصرة له، لأنها مقاربات لا تخرج، عموما، عن توجهين: توجه ذاتوي مثالي و آخر موضوعي مجرد؛ يُعنى الأول بفعل الكلام، المنبثق من الإبداع الفردي كأساس للسان، وفيه تمثل النفسية الفرديةُ مصدراً للسان، و قوانين الإبداع اللساني فيه هي قوانين فردية ـ نفسية؛ وفي التوجه الثاني يقع المركز المنظِّم لكل ظواهر اللسان، أي ما يجعل منه موضوعَ علمٍ محدَّد، داخل النسق اللساني، أي نسق أشكال اللسان الصوتية و النحوية والمعجمية؛ والتوجهان معا ظلا حبيسي الإرث الفيلولوجي الذي يستمد مدوناته من نصوص مكتوبة و في الغالب من لغات ميتة، و بالتالي فإن المقولات المتأتية منها لا تخبرنا عن حقيقة التبادل اللفظي الحي، ذي الطبيعة الخارج لسانية، لأننا "لا نتبادل جُمَلاً كما أننا لا نتبادل كلمات (داخل فهم لساني دقيق جدا) ولا توليفات من الكلمات، بل نتبادل ملفوظات تتكون من وحدات لسانية ـ كلمات و توليفات كلمات و جمل [...] وتتسم العلاقة الحوارية بأصالة عميقة ولا يمكن اختزالها إلى علاقة منطقية أو لسانية أو سيكولوجية أو علاقة طبيعية. إننا أمام علاقة معنى خاصة، عناصرها المكوِّنة هي ملفوظات مكتملة(...)خلفها يوجد و بوساطتها يعبر فاعل متكلم واقعي أو مفترض، أي مؤلف الملفوظ المعيَّن"(مشكل النص، ص 346) إجمالا، فإن النظرية الحوارية تَقلب الأطر النظرية للسانيات العامة، إذ بات النحو، الذي يتخذ الكلمة بصفتها وحدة لمنظومة اللسان، عاجزا عن حل قضايا الملفوظ الملموس الحي بوصفه وحدة في التبادل اللفظي، ولو تشكل هذا الملفوظ من كلمة واحدة، فهذه الأخيرة تدخل ضمن إطار هو إطار المتكلم في فعله التلفظي وسط عالم قيمي، وتبعا لذلك بدل نظرية للعلاقة بالذات نحن إزاء نظرية للعلاقات بين متخاطَبين، ويغدو التبادل اللفظي هو الحقيقة الأولى للممارسة اللغوية، وإزاء تصور جديد للتفاعل اللفظي في كل مجالات النشاط الإنساني الموسومة بالتنوع و الاختلاف، والمرتبطة ضرورة باستعمال اللغة، الذي لا يقل عنها تنوعا و اختلافا من حيث ميزتُه ونمطُه، لأن التواصل اللغوي" يتم بوساطة ملفوظات ملموسة و فريدة، شفوية أو مكتوبة، تنبع

من تمثيلات حقل النشاط الإنساني هذا أو ذاك. والملفوظ يترجم الظروف و الغايات في جميع هذه الحقول لا من حيث محتواه الموضوعاتي(التيماتي) فحسب أو أسلوب لسانه(...) و لكن أيضا من خلال بنائه التأليفي"(ص.268) هذه العناصر الثلاث تنصهر في الملفوظ باعتباره كلاًّ، داخل مدار معين للتفاعل اللفظي، وكل مدار لاستعمال اللسان له أنواعه من الملفوظات، القارة نسبيا، و تلك هي **أجناس الخطاب** التي تفوق إطار اللسانيات العامة، هذه الأخيرة التي لا تنظر إلى التلفظات باعتبارها ذلك التحقق العملي للملفوطات في سياقاتها الاجتماعية و التاريخية، المحكومة بالعلاقة الآنية أو المؤجلة بين المتخاطبين، وإنما ترى أنها تفتقد للدقة و فيها من التنافر و التشاكل ما يمنع وجود أرضية مشتركة لدراستها، لأن السمات المشتركة بينها ـ في نظرها ـ مجردة و عديمة الفعالية. إلا أن باختين بتحويله لوجهة النظر يغير بالتالي موضوع الدراسة، أو على الأصح يضيء موضوع الدراسة و يوسع إطارها النظري إلى ما أسماه **الميطالسانيات**. " كيف تمكن الإحاطة بالملفوظ؟ هل بوساطة العوامل الميطالسانية؟ نعم"،[...] وفي موضع أخر:" أما العلاقة الحوارية بين النصوص و التي يظهر أثرها أيضا داخل الملفوظ المعزول فتختص بها الميطالسانيات، وهي تتميز بطبيعتها عن العلاقات اللسانية الموجودة بين العناصر داخل نسق اللسان أو داخل الملفوظ المعزول"(مشكل النص، ص 332 -333)،لأن العلاقات الحوارية هي شرط المعنى الذي ينجم عن الفهم الإستجابي، أي أن الفهم نتاج للعلاقات الحوارية وتداخل الذوات؛ وبهذه الصفة يتوجب على دراسة الملفوظ حسب باختين، نظرا لقيمته كوحدة حقيقية في التبادل اللفظي، أن تسمح كذلك بتعميق فهم طبيعة وحدات اللسان، من كلمات و جمل. "إن العلاقة الحوارية تقتضي وجود لسان، غير أنها لا توجد في نسق اللسان، إذ يتعذر قيامها بين عناصر اللسان."(مشكل النص، ص، 337).

وتنقسم أجناس الخطاب حسب باختين في الدراسة التي تحمل العنوان نفسه إلى أجناس أولى و أجناس ثانوية. "وهي تضم على السواء الرد في الحوار اليومي(مع اعتبار الاختلافات التي تجليه وفق الموضوعات و الظروف و تشكيلة طرفيه)،الحكاية المألوفة، الرسائل بأشكالها المتنوعة، الأمر العسكري المعمَّم في صورته المختصرة وفي صورة الأمر المفصَّل، ذخيرةُ الوثائقِ الرسمية(المعمَّمة

في أغلبيتها)،وفضاء خطاب الإعلاميين(بالمعنى الواسع للكلمة في الحياة الاجتماعية و السياسية [...] و تجمع بين الأشكال المختلفة للعرض العلمي و كل الأنماط الأدبية، بدء بالإلقاء و انتهاء بالرواية الضخمة"(ج. إ. ل، ص 269). هذا التنوع الذي كان بمثابة العائق الذي جعل اللسانيات العامة لم تتوصل إلى وضع المشكل العام لأجناس الخطاب. و يشدد باختين على ضرورة أن نأخذ بعين الاعتبار الاختلاف الجوهري الموجود بين جنس الخطاب الأول(البسيط) و جنس الخطاب الثانوي(المركب) حيث أن كل مدار من النشاط الانساني يشتمل على ذخيرة من أجناس الخطاب تتطور و تتضخم موازاة مع تطور و تعقيد المدار المعطى؛ إلا أن هذا التنافر لا يعني أن أجناس الخطاب لم تكن موضوعا للدراسة: بل تمت دراسة الأجناس الأدبية و الفنية أكثر من غيرها، سواء في العصر القديم أو في المرحلة المعاصرة، كما تمت دراسة الأجناس البلاغية(القانونية و الرسمية)،وأخيرا تمت دراسة أجناس الخطاب اليومي(الرد في الحوار اليومي، بالأساس)، لكن ذلك تمّ من زاوية الفوارق الأجناسية البينية (في حدود الأدب) وليس كأنواع خاصة من الملفوظات تتميز عن أنواع أخرى من الملفوظات، والتي تشترك معها في كونها ذات طبيعة لفظية(لسانية)[...] وتتجلى أجناس الخطاب الثانوية ـ الرواية، المسرح، الخطاب العلمي، الخطاب الإيديولوجي، إلخ في ظروف تبادل ثقافي(مكتوب أساسا) ـ فني، علمي، اجتماعي ـ سياسي معقد أكثر و متطور نسبيا"(نفسه،ص.270). و العائق الأساسي في مختلف المقاربات المذكورة لأجناس الخطاب يكمن في أنها لم تواجه المظاهر الحوارية وخارج اللسانية في اللغة، لأنها بقيت حبيسة التحليل اللساني الصرف. بينما عمل باختين على "توسيع حدود كفاءة المتكلمين اللغوية أبعد من الجملة في اتجاه أنماط قارة نسبيا من الملفوظات"(ج. إ. ل .ص 268)، ذلك أن الأشكال اللسانية والأشكال النموذجية للملفوظات ،أي أجناس الخطاب تقتحم تجربتنا ووعينا بطريقة متصلة دون أن يعرف تعالقها الحميم انقطاعا؛ أن نتعلم الكلام فذلك يعني أن نتعلم بَنْيَنَة الملفوظات.(لأننا نتكلم بوساطة ملفوظات، لا بوساطة جمل معزولة ولا بوساطة كلمات معزولة). إن أجناس الخطاب تنظم كلامنا بالطريقة نفسها التي تنظمه بها الأشكال النحوية(التركيبية)، إننا نتعلم صياغة كلامنا في أشكال الجنس"(نفسه، ص 290).و يعتبر مدار التواصل هو أول مظهر يؤكد عليه باختين في دراسته الميطالسانية: " إن الرابط العضوي الذي

يصل الأسلوب بالجنس يبدو كذلك بوضوح كبير عندما يتعلق الأمر بمشكل أسلوب اللسان أو الوظيفة. وبالفعل، فأسلوب اللسان والوظيفة ليس سوى أسلوب جنس خاص بمدار معين من النشاط و التواصل الانساني. إن لكل مدار أجناسه الملائمة لخصوصيته، توافقها أساليبها المحددة. ويؤكد باختين على أن المدارات هي مجال وجود الكثير من الأجناس، وبالتالي فإن تصنيف الأجناس ينبغي أن يتم وفق مدارات النشاط الانساني، وهذه الأخيرة هي في العمق مبدأ تصنيف الأجناس. وهذا أمر يشدد عليه الباحث الفرنسي الذائع الصيت في مجال تحليل الخطابات، أو ما سمي مرحليا، اللسانيات النصية، جان ميشيل آدم الذي لا يخلو عمل من أعماله النظرية ـ التطبيقية من الاستناد إلى المنجز الباختيني، حيث يقول بأن الباحث الروسي هو بالتأكيد الباحث الذي عبَر مبكرا عن الحاجة إلى التصنيفات النوعية، والذي يحدد موضوعه عند تخوم علم الاجتماع و اللسانيات و الأدب". هذه الحاجة إلى التصنيف و الترتيب هي التي نجدها في التمييز بين أجناس الخطاب، أولى و ثانوية، وهو تمييز ذو أهمية كبيرة لفهم نظرية الأجناس، وامتداداتها التي شهدت إحياء لمقولة جنس الخطاب في مباحث عدة نظرا للطلب المتزايد عليها في النقد الأدبي، المنصب بالأساس على الخطاب الروائي، و في تحليل الخطابات و النصوص، و مجال الشغل و التعليم و البحث العلمي في مجالات العلوم الاجتماعية و السياسية و غيرها من المباحث؛ طلبٌ اجتماعي قوِيّ على التصنيفات النموذجية في مجال التوثيق، وتوفير قاعدة معطيات نصية، والطلب المُلِحّ عند الباحثين أنفسهم، من خلال الحاجة إلى تصنيف المدونات؛ وتُظهر نظرية الأجناس هذه عن دقّتها على الأخص بالنسبة لكل باحث في مجال تحليل الخطاب الذي يطرح على نفسه سؤال المعايير التي ينبغي وضعها إبان جمع النصوص و المحادثات اللفظية بغية إخضاعها للمقارنة و التمييز، و سؤال كيفية مقارنتها و مباينتها و تأويلها، و سؤال المقولات الإجرائية التي ينبغي العمل بها.

وفي هذا السياق، نذكر بالثورة التي أحدثها هذا التصنيف الأجناسي في مجال النقد الأدبي المختص بالرواية، ويكفي الإشارة إلى إظهار باختين قدرة الرواية(كجنس ثانوي) على احتواء الكثير من الأجناس الخطابية الأشد تنوعا بفضل موضوع الدراسة الميطالسانية الذي تَمَثل في ظواهر من قبيل المحاكاة و الأسلبة والمحاكاة الساخرة و الحكاية و الحوار؛ و إلى تبيان أن جل الأجناس

الأدبية عبارة عن أجناس ثانوية تتألف من أجناس أولى متنوعة محوَّلة(ردود الحوار، محكيات الطباع ،الرسائل، المذكرات الخاصة، الوثائق، إلخ).إن تلك الأجناس الثانوية النابعة من التبادل الثقافي المركب سوف تحاكي أشكال التبادل اللفظي الأول المتنوعة. وهذا بالضبط ما يخلق كل تلك الشخصيات الأدبية المتواضَع و المتّفَق عليها من مؤلفين و ساردين و متكلمين ومخاطبين، كما أن كل عمل من أعمال الجنس الثانوي[...] هو أيضا ملفوظ واحد و فريد، واقعي، له مؤلفه الواقعي ومتلقون يدركهم المؤلف حقيقة"(نفسه، ص. 315).هكذا فإن العلاقة بين الأجناس الأولى و الثانوية تسمح بإبراز المبدأ الحواري للغة، ليس على صعيد النصوص فحسب، بل وبالأخص على صعيد مدارات التبادل الانساني الثقافي، وبالتالي فالمقاربة الميطالسانية ، كما هي عند باختين ، مقاربة للمقامات، في وقت كانت فيه باقي النظريات اللسانية حبيسة اللسان بوصفه نسقا مغلقا من الأشكال اللغوية. فالمقولات الواردة في دراسته أجناس الخطاب(1952 - 1953)هي تلك المجتمعة في كل الملفوظ(المحتوى الموضوعاتي و الأسلوب و البناء التأليفي) والتي يبدو للوهلة الأولى أنها تنبع من تصور للنص أكثر مما هي تصور للجنس، بينما نجد في مؤلفاته السابقة على هذه الفترة، تصورا للمقام الذي يدمج البعد التقييمي للملفوظات، هذا البعد التقييمي الذي يتجلى حسب حلقة باختين - فولوشينوف - ميدفديف في التقييم الاجتماعيvalorisation sociale ،الذي يتعلق بالتحديد الاجتماعي - التاريخي للملفوظات، وبالتالي يمكن تفصيل السياق خارج اللساني للملفوظ إلى ثلاثة مظاهر: الأفق المكاني المشترك بين المتخاطبين، معرفةُ و فهم المقام المشترك أيضا بينهما، وتقييمهما المشترك لهذا المقام. وهذا الأخير لا يؤثر في الملفوظ بصورة ميكانيكية، بل إنه يندمج فيه بوصفه عنصرا ضروريا للتكوين الدلالي." إن الكلمة تتسرب حرفيا إلى كل العلاقات بين الأفراد، في علاقات التشارك، في العلاقات ذات السند الإيديولوجي، في العلاقات العابرة في الحياة اليومية، في العلاقات ذات الطابع السياسي، إلخ. إن الكلمات منسوجة بفضل عدد لا حصر له من الخيوط الإيديولوجية وتؤدي دور الحبكة في كل العلاقات الاجتماعية داخل كل المجالات"(الماركسية وفلسفة اللغة،ص.37 - 38).و التصور نفسه يحكم جنس الخطاب، الذي ينظر إليه على أنه كلٌّ يتشكل من مكونات داخلية، لكنها تُدمِج في بَنْيَنَتِها الدلالية مكونات المقام مثلما يتصوره و يقيِّمه المتخاطَبون، هذا المقام الذي تحدده عوامل خارجية(من

قبيل الأسرة، الوطن، الطبقة الاجتماعية، الأيام، الأعوام، و عصور بأكملها" وهذه خاصية الملفوظات اليومية، التي ترتبط بالسياق خارج اللفظي عبر وشائج كثيرة، وحينما نفصلها عن هذا السياق فإنها تفقد تقريبا معناها، إذ عندما نجهل سياقها المعيش المباشر يتعذر علينا فهمها(باختين ـ فولوشينوف،1930،ضمن المبدأ الحواري، تودوروف، 1981،ص.191 ـ 192).دائما و أبدا نصادف الحوارية التي تعد بمثابة حجر الزاوية في المنجز الفكري لميخائيل باختين، نشهد ثمارها في مباحث عدة، وتعرف استخدامات و تحويلات عديدة في العلوم الاجتماعية أو الاجتماعية ـ اللسانية أو العلوم السياسية كما أسلفنا، وبشكل خاص في مجال النقد الأدبي المختص بالخطاب الروائي باعتبار علاقاته التناصية الحوارية في الزمنية الصغرى(السياق الأدبي المباشر) أو الزمنية الكبرى(في التاريخ الأدبي الفني و الجمالي عبر العصور)؛ إنها الحوارية التي تعُمُّ الملفوظات، كيفما كان حجمها و انتماؤها الأجناسي، تجمع المتكلم و المتلقي، إذ لا يمكن تصور وجود أي خطاب خارج العلاقة بالمتلقي، بالآخر، بالغير، الحاضر، تصريحا أو ضمنا في خطابنا الشخصي، والغيرية، تتصل على نحو وثيق بالحوارية، إذ لا يمكن تصور هذه دون تلك، فتعاقب المتكلمين، الآخرين هو ما يحدد اكتمال الملفوظ، شفويا كان أو مكتوبا، وعلاقة بالآخر، واستباقا لردود أفعاله، يصطبغ الخطاب الشخصي بتلويناته الأسلوبية، لأن الآخرين" الذين يتشكل الملفوظ من أجلهم، يلعبون دورا كبيرا، هم الذين تصير أفكاري بنظرهم، وللمرة الأولى، أفكارا واقعية، إنهم ليسوا مستمعين سلبيين، ،بل هم مساهمون فاعلون في التبادل اللفظي، وينتظر منهم المتكلم، منذ الوهلة الأولى، إجابة و فهما استجابيا فاعلا، فالملفوظ برمته يتشكل كما لو كان يسير نحو هذه الإجابة"[...] إن مختلف الطرق النوعية للتوجه إلى شخص ما ومختلف التصورات النوعية للمتلقي هي مميزات مكوِّنة كافية ومحددة لمختلف أجناس الخطاب"(ج. إ. ل. ص (308 -315)، حيث يحضر الآخر بقوة واسمة، تطبع الملفوظ و تمثل خاصية من خصائصه المميزة، ألا وهي تعاقب المتكلمين الذي يرسم تخوم الملفوظ "إذ تُحدَّدُ تخومُ الملفوظِ الملموس بوصفه وحدةً للتبادل اللفظي، عبر تعاقب الذوات المتكلمة، أي تعاقب المتكلمين، إذ لكل ملفوظ بداية و نهاية مطلقة، قد يكون الملفوظ ردّا موجزا(كلمة واحدة) أو عرضا علميا، قبل بدايته هناك ملفوظات الآخرين، وبعد نهايته هناك ملفوظات ـ إجابات الآخرين"(نفسه،282) لأن

التفاعل الذي ينشأ بين ردود الحوار، أي العلاقة التي قد تتخذ شكل سؤال وجواب، إقرار واعتراض، تصريح أو موافقة، عرض وقبول، أمر وإنجاز، إلخ تبدو مستحيلة بين وحدات اللسان(كلمات و جمل)، فالعلاقة تقتضي الطرف الآخر في التبادل؛ إن هذا التعاقب هو ما يمثل اكتمال الملفوظ، وهو مظهر أساسي في أجناس الخطاب بنوعيه، سواء في الحوار الواقعي، أي الشكل البسيط و القديم في التبادل اللفظي أو في الأعمال المعقدة البناء، من روايات ومسرحيات وعلوم وفنون، باعتبارها وحدات للتبادل اللفظي الثقافي الإبداعي. وبالتالي فإن مقولات من قبيل التناص و الغيرية والوصل تجد كامل فعاليتها المخصبة في أكثر من اتجاه داخل فكر لا تحده ضفاف، قائم على الانفتاح والحوارية، يُضاد الحواجز التي تتخندق خلفها المباحث المنغلقة على وثوقيتها.

وللختم لن نجد أحسن من إيراد هذا المقتبس: "ليس هناك بالنسبة للكلمة(وبالتالي بالنسبة للإنسان) ما هو أشد رعبا من انعدام الاستجابة، أي انعدام الجواب، إذ حتى الكلمة التي نعرف مسبقا أنها كاذبة، ليست كاذبة على نحو مطلق، فهي تقتضي دائما طرفا يفهمها و يبررها"(جمالية الإبداع اللفظي،ص.349).

شكير نصرالدين

ناقد أدبي و مترجم.